العولمة والحياة الثقافية

في العالم الإسلامي

إعداد

أ.د. عبد العزيز بن عثمان التويجري

المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية

والعلوم والثقافة – إيسيسكو –

توطئة :

لكل عصر مفاهيمه ومصطلحاته ومفرداته، ولكل مرحلة من مراحل التاريخ البشرى، اهتماماتها وقضاياها وانشغالاتها، وفى مسيرة الفكر الإنسانى تتجدد ألفاظ الحضارة وتتطور معانيها وتتشعب مضامينها، وتبرز أفكار جديدة ونظريات مبتكرة تنحو مناحى متعددة وتطرح فى صياغات مستحدثة، أو تصب فى قوالب ونظم تلائم العصر وتعبر عن طبيعته وتستهدف قضاياه.

ومن المفاهيم الجديدة التى تطرح فى هذا العصر، وتحديدا منذ العقد الأخير من القرن الماضى، مفهوم (العولمة) الذى اقترن ظهوره بانتهاء الحرب الباردة وابتداء بما اصطلح عليه بـ(النظام العالمى الجديد) الذى هو فى حقيقة أمره وطبيعة أهدافه، نظام صاغته قوى الهيمنة والسيطرة لإحداث نمط سياسى واقتصادى واجتماعى وثقافى وإعلامى واحد وفرضه على المجتمعات الإنسانية كافة وإلزام الحكومات بالتقيد به وتطبيقه.

ولقد خالط مفهوم العولمة هذا كثير من الأوهام حتى صار من المفاهيم المعقدة، المبهمة أحيانا، المثيرة للجدل دائما، المرتبطة فى الأذهان بالسياسة التسلطية التى تمارسها الدولة التى انفردت بزعامة العالم فى هذه المرحلة، بعد أن خلا لها المجال بانهيار القطب الموازى لها، وسقوط منظومته المذهبية الفلسفية والسياسية والفكرية والثقافية.

ولذلك فإن للعولمة وجوها متعددة فهى عولمة سياسية، وعولمة اقتصادية، وعولمة ثقافية، وعولمة إعلامية وعولمة علمية وتقنية، والخطير فى الأمر كله، أن لا وجه من هذه الوجوه يستقل بنفسه، فعلى سبيل المثال، لا عولمة ثقافية بدون عولمة سياسية واقتصادية تمهد لها السبيل وتفرضها فرضاً بالترهيب والإجبار تارة، وبالترغيب والتمويه تارة أخرى.

ومن هنا، كان لابد أن نفهم (العولمة) باعتبارها منظومة من المبادئ السياسية والاقتصادية، ومن المفاهيم الاجتماعية والثقافية، ومن الأنظمة الإعلامية والمعلوماتية، ومن أنماط السلوك ومناهج الحياة، يراد إكراه العالم كله على الاندماج فيها، وتبنيها، والعمل بها والعيش في إطارها. وذلك هو العمق الفكري والثقافي "والأيديولوجي" للنظام العالمي الجديد.

ما العولمة ؟

على تعدد الشروح وتنوع التفسيرات التي حاول بها مفكرو العصر من المشتغلين بالفكر السياسي في اتجاهاته الثقافية والاجتماعية فهم العولمة وتفسيرها، فإن أجمع شرح للعولمة وأعمق تفسير لدلالتها ومضامينها، لا يخرجان عن اعتبار العولمة في دلالتها اللغوية، أنها جعل الشئ عالميا، بما يعني ذلك جعل العالم كله وكأنه في منظومة واحدة متكاملة، وهذا هو المعنى الذي حدده المفكرون باللغات الأوروبية للعولمة GLOBALIZATION في الإنجليزية والألمانية، وعبروا عن ذلك بالفرنسية بمصطلح MANDIALISATION ووضعت كلمة العولمة في اللغة العربية مقابلا حديثا لهذا المفهوم الجديد.

ومهما تعددت السياقات التي ترد فيها (العولمة) فإن المفهوم الذي يعبر عنه الجميع في اللغات الحية كافة هو اتجاه السيطرة على العالم وجعله في نسق واحد، ومن هنا جاء قرار مجمع اللغة العربية بالقاهرة بإجازة استعمال العولمة بمعنى جعل الشئ عالميا([1]).

لقد رجعت إلى المعجم العالمي الشهير (ويبسترز WEBSTER's) فوجدت فيه أن العولمة (GLOBALIZATION) هي إكساب الشئ طابع العالمية، وخاصة جعل نطاق الشئ أو تطبيقه، عالميا([2])، ولكني ألفيت أن هذا المعنى شديد البراءة بالغ الحيدة، لا ينسجم في عمقه مع دلالة اللفظ ومفهوم المصطلح، كما يشاع ويتردد في العالم اليوم، ولذلك فإن المفهوم السياسي والثقافي والاقتصادي للعولمة،

([1]) د.محمود فهمي حجازي، مجلة (الهلال) عدد مارس ٢٠٠١، ص٨٧.

([2]) WEBSTER'S NEW COLLEGIATED: CTIONARY, 1991, P.521.

لا يتحدد بالقدر اللازم ،إلا إذا نظرنا إليه فى ضوء رؤية عامة تدخل فى نطاقها جميع المتغيرات السياسية والثقافية والاقتصادية التى يعيشها العالم منذ مطلع تسعينيات القرن العشرين (١).

فهل العولمة خطر ؟ وهل العولمة شر كلها ؟ وهل يوجد مجال للاختيار أمام تيار العولمة الجارف المدعم بالنفوذ السياسي الضاغط والهيمنة الاقتصادية القاهرة؟

لقد اعتنى المفكرون، من شتى المشارب سواء فى العالم الإسلامى، أو من مختلف أنحاء العالم، بالتأصيل والتفنيد والتنظير للعولمة، وحسبنا أن نقول إن العولمة نظام عالمى أخذ فى الغزو والاكتساح، وهو بهذا الاعتبار حقيقة من حقائق هذه المرحلة من التاريخ.

ولعل أبرز ملامح العولمة هى ما يتبدى لنا عن طريق التطورات المدهشة التى تعرفها مجالات الاتصال والتواصل عبر الأقمار الصناعية والحاسوب والإنترنت، وذلك على النحو التالى :

* عمق التأثير فى الثقافات وفى السلوك الاجتماعى وفى أنماط المعيشة.

* اتساع دائرة الخيارات الاقتصادية بواسطة حركة الاستثمارات الدولية والأسواق المفتوحة، وتضييق دائرة الخيارات السياسية من حيث تضاؤل القدرة على الاكتفاء الذاتى اقتصاديا، ومن حيث تزايد معطيات التداخل الاستقلالى سياسيا.

* نمو ما أصبح يعرف باسم القطيع الإلكترونى (ELEC – TRONIN HERD) من مؤسسات متعددة الجنسيات، وحتى من أفراد يبحثون عن الربح ويؤثرون فى قرارات الدول وفى مصائر شعوبها.

* تسخير أدوات العولمة بكيفية تمكن منتجى هذه الأدوات من الطغيان على المستهلكين والمتعلقين بحيث تؤثر فى إلغاء لغاتهم الخاصة وفى طمس هوياتهم الوطنية.

---

(١) د.عبد العزيز بن عثمان التويجرى، الحوار من اجل التعايش، ص٦١، دار الشروق، القاهرة ١٩٩٨.

وبذلك يكون للعولمة قدرات استثنائية للتغلغل وبالتالى للتأثير، ومن الشهادات التى تؤكد هيمنة العولمة على مقدرات الحكومات والشعوب، ما جاء فى كلمة للرئيس الفرنسى جاك شيراك ألقاها بمناسبة اليوم الوطنى الفرنسى (١٤ يوليو ٢٠٠٠) حيث قال : "إن العولمة بحاجة إلى ضبط لأنها تنتج شروخا اجتماعية كبيرة، وهى وإن كانت عامل تقدم، فهى تثير أيضا مخاطر جدية ينبغى التفكير فيها جيدا، ومن هذه المخاطر ثلاثة: أولها أنها تزيد ظاهرة الإقصاء الاجتماعى، وثانيها أنها تنمى الجريمة العالمية، وثالثها أنها تهدد أنظمتنا الاقتصادية(١).

والواقع أن العولمة جزء من نظام عالمى تخضع له الشعوب والحكومات ولا يملك أحد منها أن يقف بمنأى عنه، ولذلك فإن العامل النفسى هو الذى يجعلنا نتردد، ونرتاب، ونرتعب أيضا، ونقف مشدوهين مبهورين، فإذا عالجنا الآثار النفسية المترتبة على الموقف الذى نتخذه إزاء ما يعج به عالمنا اليوم، بمنتهى الحكمة، وبقدر كبير من الرشد الحضارى والوعى الإنسانى، أمكننا أن نواجه الواقع كما هو فى حقيقته وبطبيعته، لا كما نتوقعه أو نتوهمه أو نريده.

إن الصدق مع النفس، هو الخطوة الأولى نحو امتلاك أدوات التحكم فى الآثار المدمرة للعولمة الثقافية، ومن الصدق مع النفس، أن نعترف ونقر بأننا أمة إسلامية، وفى هذه المرحلة التاريخية، لا نمتلك القدرات الكافية لكسر موجات العولمة، وللتحكم فى اتجاهات الرياح التى تهب بها، ولا ينبغى أن يفت هذا الموقف الصادق فى عضدنا، أو أن يقعدنا عن القيام بما يتعين علينا القيام به، من عمل دؤوب للتخفيف من وطأة آثار العولمة، ولرد هجماتها، وللتقليل من الخسائر الناجمة عن هذا الغزو ما أمكننا ذلك، وما استطعنا أن نسلك من سبيل إلى القيام بما يستوجبه الموقف.

---

(١) محمد السماك، من محاضرة له عن مستقبل الصحافة العربية فى ظل العولمة منشورة فى مجلة (الحوادث) عدد ٢٣١٠، ٢٠٠١/٣/٩، ص٦٣.

دوائر العولمة :

هل للعولمة جانب واحد – هو الجانب السلبى الذى ينعكس فى الآثار السيئة والمضار والمخاطر التى تهدد استقرار المجتمعات الإنسانية – أم أن لها جوانب متعددة منها السلبى، ومنها الإيجابى؟

نعتقد أن هذا السؤال يصح أن نتخذه مدخلا إلى فهم أعمق للعولمة على المستويات كافة، وبصورة خاصة على المستوى الثقافى، وإلى استيعاب أشمل لمضامينها.

والحق أن ما من نظام أو منهج أو فكرة سياسية واجتماعية تتصل بحياة البشر، إلا ولها وجوه متعددة على اعتبار أن الفكر الإنسانى هو ذو منزع مزدوج من الخير والشر، وهما العنصران الكامنان فى الضمير الإنسانى، وعلى هذا الأساس، فإننا نرى أن للعولمة دوائر تتحرك فيها، وهى بذلك ليست دائرة واحدة منحصرة فى حدود معلومة، وللإرادة الإنسانية تأثير فى تحديد هذه الدوائر ورسم معالمها وضبط مساراتها.

وعلى الرغم من وضوح هذه الفكرة، فإن التركيز على الجانب الاقتصادى والسياسى للعولمة، جعلها تغيب فى أحيان كثيرة عن الأذهان، إلى درجة أن معظم المفكرين فى العالم، ومنهم طائفة من المفكرين فى العالم الإسلامى، يغفلون عن الجوانب الأخرى للعولمة، وينزعون نحو إدانة العولمة جملة وتفصيلا، الأمر الذى تضيع معه عناصر كثيرة من الحقيقة، بحيث يقع الخلط بين الحق والباطل وبين الواقع والمثال.

إن رفضنا العولمة وتنديدنا المتكرر عالى الصوت بآثارها السلبية، وتركيزنا على نقض أسسها ودحض ادعاءات المروجين لها، كل ذلك لن يؤثر فى طبيعة الوضع الناجم عن هيمنة النظام العالمى الذى يفرض العولمة على العالم، ولن يكون لموقفنا هذا، أى تأثير إيجابى على العولمة، من حيث هى فكرة ومنهج وأسلوب ونظام وتيار عارم جارف يكتسح الحواجز ويدك المواقع، ولذلك فإننا ندعو إلى أن

نلتمس للعولمة جوانب إيجابية، ونعمل ما وسعنا العمل، لتوظيف إيجابيات العولمة فيما ينفعنا فى حياتنا العامة.

إن المسالة فى حاجة شديدة إلى ضبط منهجى نتحكم به فى العولمة بأعلى ما نستطيع من قدرات، وبذلك نسلك طريقنا إلى الاستفادة من العولمة على النحو الذى يدفعنا إلى الإسهام فى الحضارة الإنسانية الجديدة، من موقعنا الثقافى المتميز وبخلفيتنا التاريخية وبهويتنا الحضارية المتفردة.

إن هذا الموقف الإيجابى إزاء العولمة يتطلب منا أن ننخرط فى المعترك الثقافى العالمى، وأن ندفع بمجتمعاتنا فى اتجاه التفاعل المتحرك مع المتغيرات المتسارعة، حتى نفهم ما يجرى حولنا، ونستوعب التحولات الكبرى التى تعيشها الإنسانية فى هذا العصر، ولئلا نبقى قاعدين ننذب حظوظنا، وعاجزين نتفرج على العالم يتطور ويتقدم.

إن الهزيمة النفسية أمام العولمة تأتى من اعتبار ظاهرة العولمة حتمية وهذا أمر مبالغ فيه، وهو لا يعبر عن حقيقة هذه الظاهرة، لأن اعتبار ظاهرة العولمة حتمية، قد لا يكون فى الحقيقة أكثر من اعتراف المرء بأنه لم يعد لديه طاقة باقية للمقاومة، أى أنه قد نفذ جهده، وأصبح مستعدا للتسليم، فإذا كان هذا هو اختيار بعضهم، فهو ليس ملزما لغيرهم، ومن الظلم على أى حال، أن يوصف بالحتمية اختيار لا يعكس إلا نفاذ الطاقة أو استعجال المكافأة، وهو موقف ظالم، لأنه يحمل عدة أجيال قادمة عبء فشل جيل بعينه، فاعتبار ظاهرة ما حتمية، يتوقف أيضا على المدى الزمنى الذى يأخذه المرء فى اعتباره([1]).

إن حقائق الأشياء تؤكد أن العولمة لا تمثل خطرا كاسحا ومدمرا، إلا على الشعوب والأمم التى تفتقر إلى ثوابت ثقافية، أما تلك التى تمتلك رصيدا ثقافيا وحضاريا غنيا، فإنها قادرة على الاحتفاظ بخصوصياتها والنجاة من مخاطر العولمة وتجاوز سلبياتها.

([1]) د. جلال احمد أمين، العولمة، ص٤٢، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٨.

ومن الأساليب التى يستخدمها مهندسو العولمة ومروجوها، تهينة الشعوب بالهزيمة والاستعداد للاستسلام أمام ما يريدون فرضه، على الشعوب والحكومات، عن طريق إضعاف الإحساس بالذاتية، وبالتمييز، وبالاعتزاز بكل ما يمت إلى التراث الحضارى والرصيد الثقافى بصلة.

ومن هنا نجد أن الرفض العالمى للعولمة يتنامى باطراد، وإن كان لا يملك أن يؤثر فى صد هجمات العولمة على أمم الأرض وشعوبها، على الأقل فى المدى المنظور، لأننا نعتقد جازمين، أن كل نظام ظالم للإنسان، أو عقيدة قاهرة للفطرة، أو منهج يفرض الهيمنة على الإرادة الإنسانية ويتحكم فى أشواق النفس البشرية الروحية وتطلعاتها الثقافية وطموحها الحضارى هو إلى انهيار وزوال لأنه يصادم سنة الله فى خلقه، ويتنافى مع فطرة الله التى فطر الناس عليها.

وأمام عنفوان العولمة وضغوطها القوية، لا ينبغى أن نستسلم ونذعن لإرادة الأقوياء المتحكمين فى أزمة الأمور فى ظل النظام العالمى الجديد، ولا يتعارض هذا الموقف المطلوب منا اتخاذه مع ما ذكرناه آنفا.

إن الخطأ المنهجى الذى تقع فيه طائفة من المفكرين من العالم العربى الإسلامى الذين بحثوا ظاهرة العولمة، يكمن أساسا فى أنهم بدلا من أن يرسموا الخريطة الجديدة التى يتعين على المجتمعات العربية الإسلامية الاقتداء بها، ويضيئوا أمام أصحاب القرار والنخب المثقفة والمفكرة، المصابيح لتسلط على الحقائق كما هى لا كما نتوهمها أو نتخيلها أو كما نريدها أن تكون، راحوا يسهبون إسهابا مفرطا، فى تعداد مساوئ العولمة وأضرارها والمخاطر التى تتسبب فيها، فكانوا بصنيعهم هذا، يقومون بشق من الواجب، ولا ينهضون بمسؤوليتهم كاملة.

إن أحداً منا لا يجادل فى أن ثمة شواهد كثيرة إلى أن قوى العولمة المعاصرة ليست سوى امتداد عضوى وإيديولوجى لقوى الاستغلال والسيطرة والاحتواء وتعمل على تكريس التبعية من جانب الدول الأقل نموا لتلك الأكثر نموا، وإن كانت آليات تكريس التبعية قد اختلفت فى ظل العولمة من الاستعمار التقليدي إلى اللجوء لسياسة

الضغط الاقتصادى(١)، فهذه حقيقة لا سبيل إلى إنكارها، ولكن هل تقف مسؤوليتنا عند هذا الحد، وهو الجهر بهذه الحقيقة، أم أن المسؤولية تمتد وتتشعب وتتواصل؟

إن المنهج فى بحث ظاهرة العولمة، هو إلى الوصف التحليلى والنقد السياسى من منطلق إيديولوجى، أقرب منه إلى المعالجة العلمية المستنيرة المبرأة من كل هوى سياسى أو أيديولوجى، ولذلك كان من السلبيات التى وقع فيها معظم من عالج قضية العولمة من خلال هذا المنهج، العزوف عن الموضوعية المجردة تحت تأثير الفكر الشمولى الذى كان يسود فى عهود القطبين الكبيرين فى زمن الحرب الباردة.

مجال العولمة الثقافية :

العولمة، كما أسلفنا القول، منظومة متكاملة يرتبط فيها الجانب السياسى بالجانب الاقتصادى والجانبان معا يتكاملان مع الجانب الاجتماعى والثقافى، ولا يكاد يستقل جانب بذاته، وعلى هذا الأساس، فإن العولمة الثقافية هى ظاهرة مدعومة دعما محكما وكاملا، بالنفوذ السياسى والاقتصادى الذى يمارسه الطرف الأقوى فى الساحة الدولية، وللوقوف على الصورة الواضحة للأجواء التى تمارس العولمة الثقافية فى ظلها نفوذها على الشعوب والأمم، نسوق فيما يلى باختصار وتركيز طائفة من المعلومات التى تنشر وتتداولها الصحافة العالمية المتخصصة والمواكبة لثورة المعلوماتية التى هى الأساس الراسخ للعولمة الثقافية، والتى تشكل القوة الضاربة للنظام العالمى الجديد.

إن تقنية المعرفة، هى قوة الدفع للعولمة الثقافية، وفى ظل النقلة الجديدة والمتطورة جدا لتقنية المعرفة، يبدو العالم منقسما إلى ثلاثة أقسام :

١ - إن ١٥ بالمائة من سكان العالم يوفرون تقريبا كل الابتكارات التكنولوجية الحديثة.

---

(١) رجب البنا البحث عن المستقبل، ص٢٣٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة١٩٩٩ ود.مصطفى عمر التير، آراء حول المحافظة على الهوية الثقافية العربية فى ظل العولمة، مجلة الحوادث.

ومن الأساليب التى يستخدمها مهندسو العولمة ومروجوها، تهيئة الشعوب بالهزيمة والاستعداد للاستسلام أمام ما يريدون فرضه، على الشعوب والحكومات، عن طريق إضعاف الإحساس بالذاتية، وبالتمييز، وبالاعتزاز بكل ما يمت إلى التراث الحضارى والرصيد الثقافى بصلة.

ومن هنا نجد أن الرفض العالمى للعولمة يتنامى باطراد، وإن كان لا يملك أن يؤثر فى صد هجمات العولمة على أمم الأرض وشعوبها، على الأقل فى المدى المنظور، لأننا نعتقد جازمين، أن كل نظام ظالم للإنسان، أو عقيدة قاهرة للفطرة، أو منهج يفرض الهيمنة على الإرادة الإنسانية ويتحكم فى أشواق النفس البشرية الروحية وتطلعاتها الثقافية وطموحها الحضارى هو إلى انهيار وزوال لأنه يصادم سنة الله فى خلقه، ويتنافى مع فطرة الله التى فطر الناس عليها.

وأمام عنفوان العولمة وضغوطها القوية، لا ينبغى أن نستسلم ونذعن لإرادة الأقوياء المتحكمين فى أزمة الأمور فى ظل النظام العالمى الجديد، ولا يتعارض هذا الموقف المطلوب منا اتخاذه مع ما ذكرناه آنفا.

إن الخطأ المنهجى الذى تقع فيه طائفة من المفكرين من العالم العربى الإسلامى الذين بحثوا ظاهرة العولمة، يكمن أساسا فى أنهم بدلا من أن يرسموا الخريطة الجديدة التى يتعين على المجتمعات العربية الإسلامية الاقتداء بها، ويضيئوا أمام أصحاب القرار والنخب المثقفة والمفكرة، المصابيح لتسلط على الحقائق كما هى لا كما نتوهمها أو نتخيلها أو كما نريدها أن تكون، راحوا يسهبون إسهابا مفرطا، فى تعداد مساوئ العولمة وأضرارها والمخاطر التى تتسبب فيها، فكانوا بصنيعهم هذا، يقومون بشق من الواجب، ولا ينهضون بمسؤوليتهم كاملة.

إن أحدا منا لا يجادل فى أن ثمة شواهد كثيرة إلى أن قوى العولمة المعاصرة ليست سوى امتداد عضوى وإيديولوجى لقوى الاستغلال والسيطرة والاحتواء وتعمل على تكريس التبعية من جانب الدول الأقل نموا لتلك الأكثر نموا، وإن كانت آليات تكريس التبعية قد اختلفت فى ظل العولمة من الاستعمار التقليدي إلى اللجوء لسياسة

الضغط الاقتصادى([1])، فهذه حقيقة لا سبيل إلى إنكارها، ولكن هل تقف مسؤوليتنا عند هذا الحد، وهو الجهر بهذه الحقيقة، أم أن المسؤولية تمتد وتتشعب وتتواصل؟

إن المنهج فى بحث ظاهرة العولمة، هو إلى الوصف التحليلى والنقد السياسى من منطلق إيديولوجى، أقرب منه إلى المعالجة العلمية المستنيرة المبرأة من كل هوى سياسى أو أيديولوجى، ولذلك كان من السلبيات التى وقع فيها معظم من عالج قضية العولمة من خلال هذا المنهج، العزوف عن الموضوعية المجردة تحت تأثير الفكر الشمولى الذى كان يسود فى عهود القطبين الكبيرين فى زمن الحرب الباردة.

مجال العولمة الثقافية :

العولمة، كما أسلفنا القول، منظومة متكاملة يرتبط فيها الجانب السياسى بالجانب الاقتصادى والجانبان معا يتكاملان مع الجانب الاجتماعى والثقافى، ولا يكاد يستقل جانب بذاته، وعلى هذا الأساس، فإن العولمة الثقافية هى ظاهرة مدعومة دعما محكما وكاملا، بالنفوذ السياسى والاقتصادى الذى يمارسه الطرف الأقوى فى الساحة الدولية، وللوقوف على الصورة الواضحة للأجواء التى تمارس العولمة الثقافية فى ظلها نفوذها على الشعوب والأمم، نسوق فيما يلى باختصار وتركيز طائفة من المعلومات التى تنشر وتتداولها الصحافة العالمية المتخصصة والمواكبة لثورة المعلوماتية التى هى الأساس الراسخ للعولمة الثقافية، والتى تشكل القوة الضاربة للنظام العالمى الجديد.

إن تقنية المعرفة، هى قوة الدفع للعولمة الثقافية، وفى ظل النقلة الجديدة والمتطورة جدا لتقنية المعرفة، يبدو العالم منقسما إلى ثلاثة أقسام :

١- إن ١٥ بالمائة من سكان العالم يوفرون تقريبا كل الابتكارات التكنولوجية الحديثة.

([1]) رجب البنا البحث عن المستقبل، ص٢٣٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة١٩٩٩ ود.مصطفى عمر التير، آراء حول المحافظة على الهوية الثقافية العربية فى ظل العولمة، مجلة الحوادث.

والتوظيف المخطط والمدروس للإمكانات والقدرات، والاستغلال الجيد للفرص المتاحة وللآفاق المفتوحة أمام العالم الإسلامى لتحقيق نقلة حضارية حقيقية.

فى هذه الحالة، يمكن أن نمتلك الشروط الضرورية لتقوية جهاز المناعة الثقافية ولتعزيز قدرة الإنسان المسلم على الصمود فى وجه العولمة الثقافية وبدون امتلاك هذا الشرط، يستحيل أن نحمى الهوية الثقافية الحضارية الإسلامية من مخاطر العولمة الثقافية.

إن تقوية الكيان الإسلامى اقتصاديا وعلميا وتقنيا وثقافيا وتربويا، هى الوسيلة الأجدى والأنفع والأكثر تأثيرا للتغلب على الآثار السلبية للعولمة الثقافية، وللاستفادة أيضا من آثارها الإيجابية فى الوقت نفسه، من خلال التكيف المنضبط من المناخ الثقافى والإعلامى الذى توجده تيارات العولمة الثقافية والتعامل الواعى مع مستجداتها ومتغيراتها وتأثيراتها، وبدون هذه الوسيلة، فسوف نضيع فى مهب رياح العولمة، وتكتسحنا تياراتها العاصفة الجارفة.

ملامح صورة المستقبل الثقافى :

إن ما تعرفه البشرية اليوم فى عالم الاتصالات والمعلوميات، ليس بثورة كما يعبر عن ذلك فى الأدبيات المعاصرة، لأن الثورة فوضى وخبط عشواء واندفاع فى غير ما اتجاه محدد، وإنما هو تطور شامل عميق وجذرى يقوم على استغلال العلم والتقنية إلى أبعد الحدود، وعلى الدراسة والتخطيط وتوظيف القدرات المهنية والتقانية والجمع بين الخبرات المتعددة المتراكمة فى ميادين علمية تطبيقية متنوعة، وهذا العمل المتقن المحكم المدروس ليس ثورة.

ولقد أحدث هذا التطور المهول فى عالم الاتصالات والمعلومات، تحولات عميقة فى الثقافة والإعلام والاتصال، وفى مجالات النشاط الفكرى والذهنى والإنسانى المتنوعة، وقياسا على الحجم الذى بلغته هذه التحولات فى الوقت الراهن، وربطا بينها وبين المتغيرات الكثيرة التى تعرفها الإنسانية اليوم فى ميادين الاقتصاد والتجارة والصناعة والزراعة والطب والهندسة الوراثية والفضاء، نستطيع أن نبنى

توقعاتنا لما ستنتهى إليه ظاهرة العولمة الثقافية فى المستقبل على المديين القريب والمتوسط على حسابات لا تبعد كثيرا عن الصحة.

إن الأمر المؤكد أن العولمة الثقافية ستبلغ درجة قصوى من التطور تصل بها إلى درجة من التغلغل والنفوذ غير المعهود، وهذا ما يتطلب من الحكومات والشعوب، الاستعداد على جميع المستويات، للتعامل مع الحالة المرتقبة.

ولكن الأمر المؤكد أيضا - واستنادا إلى الحسابات نفسها - أن ظاهرة العولمة الثقافية، لابد وأن تنكسر وتتراجع إذا استمرت فى التصاعد على هذه الوتيرة، وبالأسلوب الحالى، وبقوة دفع من السياسة ذات النزعة الاستبدادية والمدفوعة بغطرسة الهيمنة والإصرار على قهر إرادة الشعوب وإكراهها على تبنى سياسات اقتصادية واجتماعية وثقافية وتعليمية وإعلامية، تتعارض مع مصالحها، وتصادم خصوصياتها الثقافية والحضارية.

ويمكن أن نقول فى ضوء تحليلنا هذا، أن العالم الإسلامى سيجد نفسه محاصرا بمعركة ثقافية ضارية، لا سبيل إلى التغلب على آثارها والانتصار فيها، إلا بتطوير آليات العمل الثقافى، وبتحديث وسائله، وبمراجعة شاملة وعميقة لأهدافه وغاياته.

وفى هذا المقام، نشير إلى الأداة الفعالة لتحقيق النهضة الثقافية التى يمتلكها العالم الإسلامى فى الوقت الحاضر، وهى (الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامى) التى اعتمدها مؤتمر القمة الإسلامى السادس المنعقد بداكار فى عام ١٩٩١، والتى تشكل الإطار الملائم والمتكامل للعمل الثقافى العام فى البلدان الإسلامية، وهى استراتيجية وضع آليات تنفيذها، المؤتمر الإسلامى الثانى لوزراء الثقافة الذى عقد فى الرباط بالمملكة المغربية فى عام ١٩٩٨، وهى بذلك جاهزة للتنفيذ على المستويين.. الوطنى – فى إطار السياسات الثقافية لكل دولة عضو – والإسلامى فى نطاق العمل الإسلامى المشترك ومن منطق التضامن الإسلامى.

والتوظيف المخطط والمدروس للإمكانات والقدرات، والاستغلال الجيد للفرص المتاحة وللآفاق المفتوحة أمام العالم الإسلامى لتحقيق نقلة حضارية حقيقية.

فى هذه الحالة، يمكن أن نمتلك الشروط الضرورية لتقوية جهاز المناعة الثقافية ولتعزيز قدرة الإنسان المسلم على الصمود فى وجه العولمة الثقافية وبدون امتلاك هذا الشرط، يستحيل أن نحمى الهوية الثقافية الحضارية الإسلامية من مخاطر العولمة الثقافية.

إن تقوية الكيان الإسلامى اقتصاديا وعلميا وتقنيا وثقافيا وتربويا، هى الوسيلة الأجدى والأنفع والأكثر تأثيرا للتغلب على الآثار السلبية للعولمة الثقافية، وللاستفادة أيضا من آثارها الإيجابية فى الوقت نفسه، من خلال التكيف المنضبط من المناخ الثقافى والإعلامى الذى توجده تيارات العولمة الثقافية والتعامل الواعى مع مستجداتها ومتغيراتها وتأثيراتها، وبدون هذه الوسيلة، فسوف نضيع فى مهب رياح العولمة، وتكتسحنا تياراتها العاصفة الجارفة.

ملامح صورة المستقبل الثقافى :

إن ما تعرفه البشرية اليوم فى عالم الاتصالات والمعلوميات، ليس بثورة كما يعبر عن ذلك فى الأدبيات المعاصرة، لأن الثورة فوضى وخبط عشواء واندفاع فى غير ما اتجاه محدد، وإنما هو تطور شامل عميق وجذرى يقوم على استغلال العلم والتقنية إلى أبعد الحدود، وعلى الدراسة والتخطيط وتوظيف القدرات المهنية والتقانية والجمع بين الخبرات المتعددة المتراكمة فى ميادين علمية تطبيقية متنوعة، وهذا العمل المتقن المحكم المدروس ليس ثورة.

ولقد أحدث هذا التطور المهول فى عالم الاتصالات والمعلومات، تحولات عميقة فى الثقافة والإعلام والاتصال، وفى مجالات النشاط الفكرى والذهنى والإنسانى المتنوعة، وقياسا على الحجم الذى بلغته هذه التحولات فى الوقت الراهن، وربطا بينها وبين المتغيرات الكثيرة التى تعرفها الإنسانية اليوم فى ميادين الاقتصاد والتجارة والصناعة والزراعة والطب والهندسة الوراثية والفضاء، نستطيع أن نبنى

توقعاتنا لما ستنتهى إليه ظاهرة العولمة الثقافية فى المستقبل على المديين القريب والمتوسط على حسابات لا تبعد كثيرا عن الصحة.

إن الأمر المؤكد أن العولمة الثقافية ستبلغ درجة قصوى من التطور تصل بها إلى درجة من التغلغل والنفوذ غير المعهود، وهذا ما يتطلب من الحكومات والشعوب، الاستعداد على جميع المستويات، للتعامل مع الحالة المرتقبة.

ولكن الأمر المؤكد أيضا - واستنادا إلى الحسابات نفسها - أن ظاهرة العولمة الثقافية، لابد وأن تنكسر وتتراجع إذا استمرت فى التصاعد على هذه الوتيرة، وبالأسلوب الحالى، وبقوة دفع من السياسة ذات النزعة الاستبدادية والمدفوعة بغطرسة الهيمنة والإصرار على قهر إرادة الشعوب وإكراهها على تبنى سياسات اقتصادية واجتماعية وثقافية وتعليمية وإعلامية، تتعارض مع مصالحها، وتصادم خصوصياتها الثقافية والحضارية.

ويمكن أن نقول فى ضوء تحليلنا هذا، أن العالم الإسلامى سيجد نفسه محاصرا بمعركة ثقافية ضارية، لا سبيل إلى التغلب على آثارها والانتصار فيها، إلا بتطوير آليات العمل الثقافى، وبتحديث وسائله، وبمراجعة شاملة وعميقة لأهدافه وغاياته.

وفى هذا المقام، نشير إلى الأداة الفعالة لتحقيق النهضة الثقافية التى يمتلكها العالم الإسلامى فى الوقت الحاضر، وهى (الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامى) التى اعتمدها مؤتمر القمة الإسلامى السادس المنعقد بداكار فى عام ١٩٩١، والتى تشكل الإطار الملائم والمتكامل للعمل الثقافى العام فى البلدان الإسلامية، وهى استراتيجية وضع آليات تنفيذها، المؤتمر الإسلامى الثانى لوزراء الثقافة الذى عقد فى الرباط بالمملكة المغربية فى عام ١٩٩٨، وهى بذلك جاهزة للتنفيذ على المستويين.. الوطنى – فى إطار السياسات الثقافية لكل دولة عضو – والإسلامى فى نطاق العمل الإسلامى المشترك ومن منطق التضامن الإسلامى.

ولا يعني هذا أن المستقبل الثقافي للعالم الإسلامي ،في عصر العولمة الثقافية سيكون مستجيباً لطموح الأمة الإسلامية بمجرد تنفيذ الاستراتيجية الثقافية ، ولكن الأمر يتطلب ، في المقام الأول ، بذل المزيد من الجهود المتضافرة لإحداث التغييرات المطلوبة من حيث التفكير والتخطيط والتنفيذ والمتابعة، يقتضي ذلك أن يغير العالم الإسلامي وسائل العمل الثقافي وإدارته وأهدافه أيضا، وأن يعمل على تطوير مناهج التربية والتعليم وتجديد الدراسات الإنسانية على وجه العموم، وأن يتجه نحو الأخذ بالأساليب العلمية في العمل الثقافي والإعلامي، حتى تتوافر له الوسائل الحديثة الكفيلة بالنهوض الثقافي العام، وبذلك يستطيع العالم الإسلامي أن يصمد صمودا ثابتا أمام ظاهرة العولمة الثقافية.

الخاتمة

إن العالم الإسلامى لا يملك أن يمنع العولمة الثقافية والانتشار، لأنها ظاهرة واقعية مفروضة على الشعوب والحكومات بحكم قوة النفوذ السياسى والضغط الاقتصادى والتغلغل الإعلامى والمعلوماتى التى يمارسها النظام العالمى الجديد، ولكن العالم الإسلامى يستطيع أن يتحكم فى الآثار السلبية لهذه العولمة، إذا بذل جهودا مضاعفة للخروج من مرحلته الحالية إلى مرحلة التقدم فى المجالات كلها، وليس فحسب فى مجال واحد، للترابط المتين بين عناصر التنمية الشاملة ومكوناتها.

إن التعامل مع ظاهرة العولمة الثقافية لابد وأن يقوم على أساس القوة الاقتصادية والاستقرار السياسى والسلم الاجتماعى والتقدم فى مجالات الحياة كلها، وهذا ما يتطلب بالدرجة الأولى تقوية كيان الأمة الإسلامية من الجوانب كافة، وترسيخ قواعد العمل الإسلامى المشترك، على مستوياته المتعددة، من أجل الدفع بالتعاون بين المجموعة الإسلامية نحو آفاق أرحب تطلعا وإلى مستقبل أكثر إشراقا.

والقضية فى عمقها مرتبطة بمدى قوة الإرادة الإسلامية وتماسك جبهة التضامن الإسلامى وتضافر جهود المسلمين كافة، فى سبيل رد الغارة الثقافية على العالم الإسلامى، بالعلم، وبالفهم، وبالوعى، وقبل ذلك كله، بالإيمان واليقين والتضامن والأخوة الإسلامية.